

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٨ - سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

مكية . وآياتها ست وعشرون . وقد تقدم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ (سبح اسم ربك الأعلى والغاشية) في صلاة العيود ويوم الجمعة . وروى الإمام مالك^(١) أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : هل أذاك حديث الغاشية (رواه مسلم^(٢) وأبو داود وغيرهما) .

(١) أخرجه في الموطأ في : ٥ - كتاب العمل في غسل يوم الجمعة ، حديث رقم ١٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٢ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ)

[٢] (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)

[٣] (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ)

[٤] (تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً)

[٥] (تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ إِيَّةٍ)

[٦] (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)

[٧] (لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

[٨] (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ)

[٩] (لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ » أى خبرها وقصتها ، وهى القيامة . وأصل الفاشية الداهية التى تغشى الناس بشدائدها . والاستفهام للتعظيم والتعجب مما فى حيزه ، مع تقريره « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ » أى ذليلة . وهى وجوه أهل الكفر بالحق والجهود له . والمراد بالوجوه الذوات « عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ » قال القاشانى : أى تعمل دائماً أعمالاً صعبة تتعب فيها ، كالمهوى فى دركات النار ، والارتقاء فى عقباتها ، وحمل مشاق الصور والهيئات المتعبة المثقلة ، من آثار أعمالها . أو عاملة من استعمال الزبانية إياها فى أعمال شاقة فادحة من جنس أعمالها التى ضربت بها فى الدنيا ، وأتعبها فيها من غير منفعة لهم منها إلا التعب والعذاب .

وجوز أن يكون (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) إشارة إلى عملهم في الدنيا . أى عملت ونصبت في أعمال لا تجدى عليها في الآخرة . فيكون بمنزلة حابطة أعمالها . أو جعلت أعمالها هباءً منثوراً كما يدل عليه آيات أخر، وبؤيده مقابلة هذه الآية ، لقوله في أهل الجنة (لَسَعِيْهَا رَاضِيَةٌ) وذلك السعى هو الذى كان في الدنيا . والله أعلم . «تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً» أى تدخل ناراً متناهية في الحرارة . قال القاشانى : أى مؤذية مؤلة بحسب ما تراولها في الدنيا من الأعمال «تُسَقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ» أى بلغت غايتها في شدة الحر «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ» وهو من جنس الشوك ، ترعاه الإبل ما دام رطباً . فإذا يبس تحامته ، وهو سم قاتل . قال ابن جرير (٢): الضريع عند العرب نبت يقال له الشبرق ، وتسميه أهل الحجاز الضريع ، إذا يبس . ولا منافاة بين هذه الآية وآية (٣) (وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ) لأن العذاب ألوان ، والمعدبون طبقات ، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الفسلين، ومنهم أكلة الضريع . وقيل الضريع مجاز أو كناية ، أريد به طعام مكروه حتى للإبل التى تلتذ برعى الشوك ، فلا ينافى كونه زقوماً أو غسلينا «لَا يُسْعِنُ» أى لا يخصب البدن «وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ» أى لا يسكن داعية النفس ولا نهما من أجله «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ» أى ذات حسن ، على أنه من النعومة ، كناية عن حسن النظر . أو ناعمة بمعنى متنعمة ، على أنه من النعيم «لَسَعِيْهَا رَاضِيَةٌ» أى لعملها الذى عملته في الدنيا ، وجدّها في طريق البر واكتساب الفضائل ، شاكراً لا تعدم ولا تتحسر .

(١) [٨٨ / الفاشية / ٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٦٩ / الحاقة / ٣٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

[١١] (لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً)

[١٢] (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ)

[١٣] (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ)

[١٤] (وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)

[١٥] (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ)

[١٦] (وَزَرَارِيُّ مَبْثُوثَةٌ)

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » أى مرتفعة المحل . أو رفيعة القدر ، من علو المسكنة .
 « لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً » أى لغواً ، أو كلمة ذات لغو ، أو نفساً تلغو . لأن كلامهم
 الحكمة والعلوم والتسبيح والتحميد « فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ » أى لا انقطاع لها « فِيهَا سُرُرٌ
 مَّرْفُوعَةٌ » أى مرتفعة ليروا ، إذا جلسوا عليها ، جميع ما خولوه من النعيم والملك
 « وَأَكْوَابٌ » جمع كوب ، وهو إناء لا أذن له « مَوْضُوعَةٌ » أى بين أيديهم لا يعوزهم تفقدها
 « وَنَمَارِقُ » أى وسائد « مَصْفُوفَةٌ » أى فوق الأسرة أو فى جوانب المساكن للاستناد إليها
 « وَزَرَارِيُّ » أى بسط « مَبْثُوثَةٌ » أى مفروشة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[١٨] (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

[١٩] (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)

[٢٠] (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » قال أبو السعود : استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الفاشية ، وما هو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون ، بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون إنكاره . والهمزة للإنكار والتوبيخ . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام . وكلمة (كيف) منصوبة بما بعدها ، معلقة لفعل النظر . والجملة فى حيز الجر على أنها بدل احتمال من (الإبل) أى أينكرون ما ذكر من البعث وأحكامه ، ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل ، فلا ينظرون إلى الإبل التى هى نصب أعينهم يستعملونها كل حين ، إلى أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات ، فى عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيئتها اللاتفة بتأتى ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة ، كانوا بالأوقار الثقيلة وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة . وفى صبرها على الجوع والعطش ، حتى أن أظماءها لتبلغ العشر فصاعداً . واكتفائها باليسير ، ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك ، مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم . وفى انقيادها مع ذلك للإنسان فى الحركة والسكون والبروك والنهوض ، حيث يستعملها فى ذلك كيف يشاء ، ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير « وَإِلَى السَّمَاءِ » التى يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار « كَيْفَ رُفِعَتْ » أى رفعت كواكبها رفعاً سحيق المدى ، وأمسك كل منها فى مداره إمساكاً لا يختل سيره ولا يفسد نظامه « وَإِلَى الْأَجْبَالِ » أى التى ينزلون فى أقطارها « كَيْفَ نُصِبَتْ » أى أقيمت منتصبه لا تبرح مكانها ، حفظاً للأرض من الميدان « وَإِلَى الْأَرْضِ » أى التى يضررون فيها ويتقلبون عليها « كَيْفَ سُطِحَتْ » أى بسطت ومهدت ، حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق .

قال الزمخشري : والمعنى أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق ، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث ، فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه .
لطيفة :

ذكر السكاكي فى (المفتاح) فى بحث الجامع الخيالى : أن جمعه على مجرى الإلف والعادة

بحسب ما تنعقد الأسباب في استبعاد الصور خزائنة الخيال . وأنه إذا لم يوفه حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر ، أنى يستحلى كلام رب العزة مع أهل الور ، حيث يبصرهم الدلائل ناسقاً ذلك النسق (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) الآيات ، لبعده البعير عن خياله في مقام النظر ، ثم لبعده في خياله عن السماء ، وبعد خلقه عن رفعها . وكذا البواقي . لكن إذا وفاه حقه بتيقظه لما عليه قلبهم في حاجتهم ، جاء الاستحلاء . وذلك إذا نظر أن أهل الور ، إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشى ، كانت عنايتهم مصروفة لاهماله إلى أكثرها نفعا ، وهى الإبل . ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب ، كان جلّ مرمى غرضهم زول المطر ، وأهم مسارح النظر عندهم السماء ، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يؤويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال .

(١) لنا جبلٌ يحتمله من نجيره منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كاليلٌ

فما ظنك بالتفات خاطرهم إليها ؟ ثم إذا تعذر طول مكثهم في منزل - ومن لأصحاب مواشٍ بذاك - كان عقد الهممة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور . فعند نظره هذا ، أرى البدوى إذا أخذ يفتش عما في خزائنة الصور له ، لا يجد صورة الإبل حاضرة هناك ، أو لا يجد صورة السماء لها مقارنة ، أو تعوزه صورة الجبال بعدها ، أو لا تنص إليه صورة الأرض تليها بعدهن ؟ لا . وإنما الحضرى ، حيث لم تتأخذ عنده تلك الأمور ، وما جمع خياله تلك الصور على ذلك الوجه وإذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت ، ظن النسق بجهله معيبا ، للاميب فيه . انتهى .

(١) قائله السموءل من قصيدته التى مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكلُّ رداء يرتديه جميلٌ
نجيره : نجميه . منيع : حصين . الطرف : البصر . كاليل : تعب قاصر النظر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ)

[٢٢] (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ)

[٢٣] (إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)

[٢٤] (فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)

[٢٥] (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ)

[٢٦] (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليه بآياته تعالى ، التى تسوق إلى الإيمان بخالقها الفطرة
« إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » أى مبلغ ما نسى من أمره تعالى « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » أى
بمستطاع تقهرهم على الإيمان . وقرئ بالصاد على إبدالها من السين « إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ *
فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ » وهو عذاب جهنم . والاستثناء منقطع . أى لكن
من تولى وكفر ، فإن لله الولاية والقهر ، فهو يعذبه العذاب الأكبر على جحده الحق
« إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ » أى رجوعهم ومعادهم بالموت والبعث . والجملة تعليل لتعذيبه تعالى
بالعذاب الأكبر . وجمع الضمير فيه وفيما بعده ، باعتبار معنى (مَنْ) كما أن إفراده قبل
باعتبار لفظها « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » أى فنجازيهم بالعذاب الأكبر . فإن القهر والغلبة
له تعالى وحده .